

والبذل أما الأغنياء فيخلأه ، لا ينون باسم الأناقة والذخافة ،
والخوف من الداء وانتشار الوباء ، برأبون الصدوع ، ويسدون
الفرج ، ويقلظون الدهان ، ويبثون الفخاخ . وإذا طعموا
فبالقسطاس ، وإذا شربوا لا يبتغون في الكاس . وإذا أفضلوا
فالسبير من الفتات الذي لا يصلح للأقوات ؛ فلا يقوى عليه
الضعيف ، ولا يستمن منه النحيف .

أما الفقراء فكثير منهم كرماء . ينضحون بالبر على بني الحيوان
من الإنسان وغير الإنسان . يتهاونون في الحرص على أطمتهم
وأثر بينهم ، وبهملون الجدار حتى يمتلى بالأحجار ، فتمجج بالزواجر
من كل أمة .

والفأر بينهم من الأعيان ، يجد في الدار مسرحه ، وفي الجدار
مطرحه . وله بين هذا وتلك ما شاء من طعام وشراب ...
وتنمقد بينه وبين الدار صحبة يمتنها المقام ويمكنها الالف ،
فلا يبي كلما بان عنها يذكرها ، وهي لا تفتأ كلما غاب تنفقه ...
ولو على رضا منه ، وكره منها .

وكثيراً ما تنتقل الصحبة بينهما من الدار إلى أصحابها ،
ومن الجدر إلى أربابها . فتزول الوحشة ، ويقوى الأنس ،
وتستأنس العين . حتى ترى وفود الفأر تترى زرافات لآتيها
ولا توجل . وتدير أعينها في الحاضرين كأنما تقاضاهم أجر الحراس
وثنم الإيناس ...

وهذه الدار التي تنشر رسالتها وتقص للناس قصتها ، وتحب
أن تحذهم عن الفار ووفوده إليها ، وتبسط لهم ما دار بينها من
الحوار عن عهد رخائها وبؤسها ، وأيام عزها وليالي تمسها ، هي
دار شاعرنا طاش في العصر المملوكي . وهو عصر ، كما علمنا ،
لم يدر للشعراء دره ، عاشوا فيه عيش الحرمان ، بينما سال سيل
خيره في غير مجاريهم ، وقاض ثبره دون وديانهم .

أما الشاعر فهو سفي الدين الحلي الذي طوحت به الأيام فنزح
عن بلاده ، وحى آباءه وأجداده ، إلى ملوك بني أرتق بخاردن ،
وتنقل في مساكنها من دار إلى دار ، حتى استقر في « دار
ابن الدكناس » وكتب على لسانها هذه الرسالة .

ولهذه الرسالة أو المقامة سبب اتخذها الشاعر الناثر وسيلة لأن

يكتبها على لسان داره .

طرائف من العصر المملوكي :

رسالة الدار عن محاورات الفار أوفن القصة

الأستاذ محمود رزق سليم

هذا عنوان طريف حقاً ، بشير الطرب ، ويدفع السامع إلى
تلمس الخبر واستطلاع الأثر . فكم للفار بين الدار من آثار ، وكم
لدار عند الفار من أخبار ، وما يبتئك مثل خير . فهو ريب
فتوقها ودعى شقوقها . إنخذ من أحجارها ما منه ، وبين جدارها
مسكنه . فحفظ أخبارها وكنم أسرارها . والدور تنقلب بها الأيام
كلما تنقلب بالرجال . فتشقى مرة وتسمد أخرى . وتفيض تارة
بالخير ، وتبوء تارة بالفراغ منه . وعليها من خارجها طلاء يفتشى
جدرها ، يهر العين ويخدها عما وراءها .

أما الفأر فهو بها الضيف القيم ، والزائر الذي لا يريم .
يشاركها في سرائها وضرائها . يسعد إذا هبت عليها انسام
السعادة ، ويشقى إذا عصفت بها ریح الشقاء .

وكثيراً ما تنضم دور الكرماء طوائف الفيران وجاهير
الجرذان . ولها مما فضل نصيب ، تمد منه الموائد ، وتتنادى إليها
ضيافن ، لم بوجه لها نداء ولم يرسل إليها استدعاء ، فحسبها أنها
في دور الكرماء افتتلاً البطون وتعبى الحصون ، وتسهل إلى
وقت سامرة ، وتنقلب إلى مخادعها شاكرة ذاكرة . — أما دور
البخلاء — جنبت جنبها ووقيت أعتابها — فإنها لا فضل فيها
لجامع ، ولا ثمالة لظالم ، ولا ستر لمحروم . طالما نصب أهلها
للغار المصائد ، ودبروا الكائد . فاقطب عنهم ساياً شاماً يذكركم
بكل قبيحة ، ويرميهم بكل مذمة : ونفسه فياضة منهم بالمعجب
لأنهم يخترنون — فضلاً عن اللال — ألواناً من الطعام
والشراب . فإذا لم يكن للفأر فيها نصيب ، فلن يخترنونها ،
ولأى شيء يقتنونها ؟

والمعجب كل المعجب أن يلتئم النقي والبخل ، وينسجم الفقر

وقد أفصح عن هذا السبب بقوله :

« أنشأها عن لسان الدار التي أسكنها بماردين ، وتعرف بدار ابن الدكناس ، إلى القلعة الشهباء . وأرسلها إلى السلطان الملك الصالح أبي المكارم شمس الدين . أشكو بفجورها مما طلة نائب له بدين ، كان بمضه لي ، وبمضه على يدي ، بمبلغ طائل كتبه على نفسه ، وأخرجه على مصالح الدولة ، وتمذر عليه وقاه . ولم أوتر غماشنته لسابق صحة بيننا . فأنشأها على سبيل الخلاعة والمزاح . فلما وقف السلطان عليها أطلق المال من خزائنه العالية . » الخ .

وقد بدأت الرسالة بأن تكلمت الدار . فحمت ، وتقدمت ونسبت . وأخذت تخاطب القلعة الشهباء مقام الملك الصالح فدحتها وأنت عليها . ثم انتقلت إلى الشكوي مما أصابها من هجر ما أسكنها الأول ، بعد أن رأت منه ضرورياً من البز والذميم والتمتع . ثم مما كابدت من بدمه من هم وبؤس . حتى هال فيرانها وبؤسها ، فتحدثت عنه فيما بينها ، وأهمها أمرها ، فتناقشت فيه واتخذته موضوعاً للجدال جاد .

فقام من بين الفيران خطيب سرد قصة الدار على سامعيه ، ثم أوصاهم بالسكن الجديد خيراً . - والسكن الجديد هو صفى الدين ١ . - ثم تحدثت الدار عما كان من أمر صفى ، وكيف أنه أعاد إلى رحابها عهد السرور والأنس ، ومد فيها موائد الجبور والبهجة ، حتى ضاقت ذات يده ، وتغيرت به الأحوال ، وتقلب عليه الليل والنهار . حتى جارت الدار بالشكاية له ورئى لحاله فيرانها ، وعاد أمره بينها مثاراً للجدل جديد ...

ثم بينت أن سبب نكبتة ، ذلك الدين الذي أقرضه لنائب السلطان ... وتضرع الدار في الخاتمة إلى القلعة الشهباء أن ترئى لحالها وتقبل شفاعتها في ساكنها ، حتى يرد إليه دينه فتسعد حاله .

هذا ملخص سريع لقامة صفى الدين . ومما قالته الدار في مفتتحها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الملوكة والمحرومة الرحومة ، الموحشة بمد الإيناس ، دار ابن الدكناس ، تقبل الأرض بين يدي القلعة الشريفة ، والذروة المنيفة . المزينة الشناء سيدة القلاع ، وواسطة عقد البقاع ، وإنسان عين القناع ، التي قلائدها النجوم ، ومطارفها النجوم ، وقرطها الفردان ، وقلباها السها كان .

ونطاقها الجوزاء . ومجولها المواء . وفرقها الحجر ، ونثر لإكليلها لإلاكليل والنثرة ، حصن النجباء وكهف الغرباء وكعبة الأدباء . القلعة الشهباء . » ... الخ ومن شكواها قوله :

« وتنهى أن الملوكة ، والمظلومة المضموكة ، يسكنها الحياء والأدب . وينطقها الإعياء والنصب . وشكوى الجداد إلى الجداد ، كشكوى العباد إلى العباد . وإن المهود ، من تقادم المهود ، أن الله إذا خص مخلوقاً بنعمه ، عم بها أبناء جنسه ، وأشركهم فيها مع نفسه . إلى أن قالت تصف حالها بمد ساكنها : « فلما طوحت بساكنها الأيام ، إلى أقصى الشام ، جفاها الإخوان حيناً طويلاً ، وهجرها الرفاق هجراً طويلاً ، فكابدت بمد هها وبوسى ، وأقامت فارغة كقواد أم موسى . لا تجد أنيساً في عرامها الفغار ، ولا تسمع حسيباً غير صهيل الفار . حتى رثت لها أكثر البيوت ، وخيم على وجهها أسرة العنكبوت » ... الخ . ومن كلام الجرذ الخطيب في إخوانه ، قوله بمد حمد الله والصلاة على النبي بتطوير وتنويع ، موصياً إخوانه بحسن لقاء الساكن الجديد - صفى الدين - راسماً لهم سياسة هذا اللقاء : « هذه الدار المباركة أول تربة برعم آرابها . وأول أرض مس جسمكم ترابها . فلا يمكن على أيديكم خرابها . إلا وإنها منذ خلا مسكنها من ساكنها ، وتمكن العفاء من أماكنها ، جعلتموها ندره نهاركم وليسكم ، وحلبة رجلكم وخيلكم ، والآب فقد انجابت عنها أيام البؤس ، وأفلت طوالع النحوس ، ولحظها الدهر بسين الرضا ، وقضى بسعدها فصل القضاء . وتولاها نعم المولى . وابتدر لسكنائها الصفى الحلى . وفي يومكم هذا يرسل إليكم من يلم شمتها ، ويظهر خبثها . ومتى رأيكم بها ساردين وفي قرارتها راسخين . كره منهاها ، واتخذ لنفسه سواها . فمادربها كالرمس . ومتى تقبلها إذا قابلها ، أخصب ربها ، وتمدى إلينا نفها . إلا وإن من استرشد بحكمتي ، واتبع كلمتي ، أثبتته في أمتي ، وأتمت عليه نعمتي » ...

والرسالة تقع في نحو سبع صفحات من القطع المتوسط . وهي فكاهية المنزع إلى حد كبير ، جميلة الأسلوب رقيقة العبارة تمتاز عن رسائل صفى الدين الأخرى ، بالوضوح والسلاسة بالرغم من قيود البديع التي راعاها ؛ ولكنها سلمت من التعسف والنقل . وبها بعض الملتزمات اللفظية التقليدية للرعية في رسائل العصر من نحو « الملوكة » و « تقبل الأرض » و « تنهى » .

واقاه أجله عام ٨٥٤ هـ ودفن بالخانقاه الصالحية .

نورد بعد هذا إلى كتابه «فاكهة الخلفاء» . فهو مؤلف قصصى بديع ، اجتمعت فيه الأمثال واكتنزت به الحكم ونجات به ضروب الدماء والحيل ، وغير ذلك من عدالة وصدق وأخلاق إنسانية ، لا بأسلوب فيج جامد خشن صريح ، ولكن بأسلوب قصصى جذاب ممتع فيه خيال ونصوير ، فروى على السنة الحيوان مما يمشى على أربع ، ومما يطير بجناحين ، ومما يزحف على بطنه . فهو إذاً غير مبتكر لهذا الضرب من القصص ، فقد سبقه به في العربية عبد الله بن المقفع أول من سن هذه السنة الحسنه لئلا جاء بعده من الأدباء والقصاصين في كتابه «كلاية ودمنة» فير أن ابن عربشاه كان مبتكراً في صلب القصص ومثل الحكايات . وقسم الكتاب إلى عشرة أبواب في كل منها قصة طويلة يستطرد خلالها إلى قصص جزئية أخرى . ومن أبوابها — على سبيل المثال — باب في نوادر ملك السباع وندييه أمير الثعالب وكبير الضباع ...

وقد جمع ابن عربشاه في أسلوب قصصه بين طريقة ابن المقفع وطريقة كتاب القامات وبخاصة الهمذاني والحريري .

فابن المقفع ابتدع — كما يقال — شخصية «دبشليم» الملك أحد ملوك الهند ، يجلس في محفله ويطلب إلى شخصية أخرى هي «بيديا» الفيلسوف أن يحدته ويضرب له الأمثال ، فيحدثه بيديا ويقص قصصه على ألسنة الحيوان . وكذلك فعل ابن عربشاه فإنه افترض ملكاً عظيماً يحدته رجل حكيم . ولكن بفارق يسير . ذلك أن الملك والحكيم كليهما أخوان لأب واحد كان من قبلها ملكاً عظيماً خاف أبناء خمسة . وملك من بعده كبيرهم هذا وعاش الأربعة تحت ظله في وئام وطاعة ، حتى عصفت بينهم ريح الشقاق والخلاف . فتنافرت القلوب وتجاافت النفوس وتفرقت الأهواء ، فهال الأمر اسفرهم راسمه «حسيب» وكان حكماً فيلسوفاً زاهداً . ولم يتركه أهل النعم والوقية حتى أفسدوا ما بينه وبين أخيه الملك . فجمعه الملك في حفل من أعيان دولته ، وأخذ يستطلع علمه وحكمته رغبة في التشهير به وتسميته . ففاض بينهم بحكمه وأمثاله ، وساق قصصه على ألسنة الحيوان ، وتكرر الحفل وتمدد القصص ، حتى اعترف له الجميع بالفضل والتبيل .

محمود رزق سليم

(البيعة في المدد القادم)

مدرس بكلية اللغة العربية

واجتمعت بها أغراض كتابية عدة منها الدماء والشكوى والمدح والوصف والمجون والحكمة .

وقد عرضنا في هذا المقال لهذه الرسالة لكي نبرز إحدى خصوصياتها الهامة ، وهي القصص والحوار . ونستطيع أن نقول منها أن فكرة النثر التمثيلي كانت تتراءى في تخيلات بعض الكتاب في ذلك العصر . وإن نغمها شيء من الإطالة ، والتناسق وحسن الترتيب وقوة الحكمة وروعة الوقائع ودقة الاتصال بينها . حقاً أصبحت القصة في عصرنا الحديث في مقدمة فنون القول ، وكذلك التمثيليات . وألف من هذه وتلك ، وترجم عدد لا بأس به . وتناولها النقاد على اختلاف زعاتهم بالنقد والتنويه والتعليق والتوجيه . وهم يبذلون محاولات جاهدة لكي يقتنوا تقدم ، وبضموا له الأسس والنماذج ، حتى يماوتوا على تشييد صروح القصة والتمثيلية على دعائم متينة تسمق بفضائها إلى النكال المنشود . —

غير أننا نكاف الأيام ضد طباعها ، ونزهق الزمن بمالا يطيق إذا نحن حاسبنا الأقدمين وفق شروطنا ، ووزنا أعمالهم بموازيننا ، ضاربين الذكر صفحاً عن الفروق بين ملابسنا وملابسهم ، واتجاه الزمن بنا وبهم .

والذي نحب أن ننوه به هو أن القصة كانت لها حياة ، وكان لها وجود ، في العصر المملوكي ، ولو إلى حد ما . وأن من مظاهر حياتها — فضلاً عن القصة الصريحة — القامات والمحاررات والفاخرات والموازنات والرسائل الوصفية ، وتراجيم الرجال والأبطال .

وفي مقدمة ما نشير إليه من ذلك كله كتاب «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» .

ومؤلف هذا الكتاب هو شهاب الدين أحمد بن عربشاه الطبيب والوزع الأديب صاحب كتاب «معجائب المقدور في أخبار تيمور» أصله دمشقي أصاري ، ولد بدمشق عام ٧٩٦ هـ ، وقد هاجر مع أسرته منها حينما دهمها تيمور لنك التتري ، وطوحت به الأيام حتى طاف بأفاق أسبوية عدة ، ثم عاد إلى بلاد الأتراك العثمانيين واشتمل في ديون إنشائهم ، وأتقن عدة لغات ، ومهر في جملة علوم . واعتزل العمل بأخرة ، وعاد إلى وطنه . ويم شطر حلب ، وزار مصر في عهد سطلانه جقمق الملائق وقال السخاوى إنه لقيه بها عام ٨٥٠ هـ . وقد اثبت بمصر حتى